

النظرية البنائية

إنّ النظريات والمدارس في العلاقات الدولية تهدف إلى محاولة تفسير وتحليل الظواهر السياسية والعلاقات بين الدول، بهدف معرفة الأسباب والدوافع وراء الأحداث الجارية بينها، وبالتالي محاولة التنبؤ بمسار هذه العلاقات في المستقبل. يمكن اعتبار البنائية مُقْتَرَب أكثر من كونها نظرية، هي مُقْتَرَب لأنّها مدخل فكري يقدّم منهجاً لدراسة العلاقات الدولية بمنظور سوسيولوجي. فهي قبل ثمانينيات القرن العشرين كانت اتجاهاً أبنتمولوجياً فلسفياً، محور اهتمامه كيف تتشكل المعاني لدى البشر في سياق التفاعل بين خبراتهم وأفكارهم. وهي مُقْتَرَب يجعل من الممكن للباحث في العلاقات الدولية وضع أسس نظرية لظواهر السياسة الدولية وتمكّنه من التنبؤ دون أن تتنبأ بذاتها بظواهر عامة.

نشأة النظرية البنائية

إنّ نشأة البنائية في العلاقات الدولية مرتبطة بشكلٍ وثيق بانتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي، وهو الحدث الذي فشلت النظريات التقليدية كالواقعية والليبرالية بتفسيره. هذا الفشل يعود إلى أنّ مبادئ هذه النظريات تركّز بشكلٍ أساسي على القوة والمصلحة الوطنية حين تدرس العلاقات بين الدول.

البنائية كنظرية إجتماعية:

مثلها مثل عدّة نظريات في العلاقات الدولية، نشأت البنائية كنظرية إجتماعية قبل أن يتم تطبيقها أو الاستعانة بها في حقل العلاقات الدولية، لذلك من الضروري جداً استعراض مبادئها الاجتماعية من أجل فهم رؤيتها تجاه العلاقات الدولية. تنص البنائية على أنّ العلاقات البشرية تتكوّن من أفكار وليس حصراً من شروط مادية أو عناصر قوّة. بالنسبة للبنائية، فإنّ العالم الاجتماعي ليس مُعطى، أي ليس شيئاً موجوداً في مكان ما بشكلٍ مستقل عن الأفكار والآراء للأشخاص المشمولين به. هو ليس واقع خارجي حيث يمكن اكتشاف قوانينه من خلال البحث العلمي أو تفسيره عبر النظرية العلمية كما قال السلوكيون

على سبيل المثال. كل شيء ضمن العالم الاجتماعي للرجال والنساء صنعوه هم بأنفسهم، وهو ما يجعله واضحاً ومفهوماً لهم. العالم الاجتماعي هو عالم مُكوّن من الوعي الإنساني، من الأفكار والمعتقدات، من المبادئ واللغات، من الإشارات والمفاهيم السائدة بين البشر، خاصة بين الجماعات البشرية، مثل الأمم والدول. العالم الاجتماعي هو نطاق الذاتية المشتركة، حيث يكون له معنى للأشخاص الذين صنعوه ويعيشون داخله، والذين يفهمونه بدقة كونهم هم أوجدوه ويشعرهم بالانتماء والأمان.

مفهوم النظرية البنائية في العلاقات الدولية:

تُركز البنائية بشكلٍ أساسي على الوعي الإنساني والدور الذي يلعبه في الشؤون الدولية، بعكس النظريات الأخرى وخاصة الواقعية الجديدة التي تركز على الجانب المادي وعلى كيفية توزّع القوّة من عسكرية وقدرة إقتصادية، في تحديد توازن القوى وفي شرح سلوك الدول. البنائيون يرفضون هذا التفسير المادي الحصري، ويعتبرون أنّ أهم عنصر في العلاقات الدولية هو اجتماعي وليس مادي، أي أنّ عالمنا بالنسبة للبنائية مُكوّن اجتماعياً في المقام الأول.

يُعتبر ألكسندر ويندت Alexander Wendt – أهم من أسهم في تطوير المنظور البنائي، وقدّم مثلاً ممتازاً لشرح البناء الاجتماعي لواقعنا حينما قال أنّ التهديد الناتج عن 500 سلاح نووي بريطاني بالنسبة للولايات المتحدة الأميركية هو أقل من التهديد الناتج عن 5 أسلحة نووية لكوريا الشمالية، لأنّ التهديد ليس ناتجاً عن الأسلحة النووية بحدّ ذاتها (البنية المادية)، بل عن المعنى الممنوح لهذه البنية المادية (أي البنية الفكرية)، بالتالي فإنّ الأسلحة النووية ليس لها أي معنى إلا حينما نضعها بالإطار الاجتماعي الذي يحدّد العلاقة القائمة بين كل من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا من جهة، وبين الولايات المتحدة الأميركية وكوريا الشمالية من جهة أخرى.

بالنسبة لويندت فإنّ عملية التفاعل بين الدول هي التي تحدّد الهويّات وتخلق المصالح، بعكس ما يفترض الواقعيون بأنّ الهويّات والمصالح موجودة مسبقاً، أيّ الدول تعرف هويتها وماذا تريد قبل أن تبدأ بالتفاعل مع دول أخرى بالنسبة للواقعية. يطرح ويندت مثلاً آخر ويقول إذا قررت الولايات المتحدة الأميركية

والإتحاد السوفياتي أنهما ليسا عدوتين، فإنّ الحرب الباردة ستنتهي، أيّ أنّ المعنى الجمعي هو الذي يكون البنية التي تنظّم وتحدد أفعالنا وتحركاتنا.

نقد النظرية البنائية:

أبرز الانتقادات التي نالتها البنائية وُجّهت من قبل خصمها الفكري الألد أي الواقعية الجديدة، وهي:

- شكّك الواقعيون بالأهمية العظمى التي توليها البنائية للأنماط الاجتماعية، بخاصة على الصعيد الدولي، واعتبروا أنّ هكذا أنماط موجودة بالفعل لكنّ يمكن تجاهلها بسهولة من قبل الدول الكبرى حينما تتعارض مع مصالحها.

- لم يتقبّل الواقعيون فكرة أنّ الدول تدخل بسهولة بعلاقات صداقة مع بعضها بناءً على نوع تفاعلهم الاجتماعي، فهكذا هدف ربما يكون مرغوب بالمبدأ، لكنّه غير قابل للتطبيق بالممارسة، لأنّ تركيبة النظام الدولي تجبر الدول على التصرف بأنانية.

- من المشاكل التي أغفلتها البنائية هي شعور الدول بالريبة أو عدم اليقين تجاه بعضها البعض، أي عدم التأكد من النوايا الحقيقية سواء الحالية أو المستقبلية. كذلك أغفلت مشكلة الخداع، فالبنائية اعتبرت أنّ التفاعل الاجتماعي بين الدول يكون صادقاً وصريحاً على الدوام.